الماء سر الحياة

أ.د. مضر خليل عمر

هل اراد رب العزة ان يكون الماء اساسا لكل شيء حي فقط ؟ اي التفسير الحيوي (البايولوجي) حصريا ، ام ان الماء هو احد اسرار الحياة بمعانيها الاوسع والاعمق (غير المادية - البايولوجية) ؟ فالعلاقة السببية (الوجودية) بين الماء والكائنات الحية امر مفروغ منه ، والامر الاخر ، ان الرحمن الرحيم قد جعل سره في اضعف خلقه (الماء والهواء) ، وانهما من جنوده المسخرة لتنفيذ اوامره . فبالاضافة الى دراسة الموارد المائية جغرافيا ، (مورد طبيعي ، الامطار ونماذج تساقطها ، دور المياه في النقل ، في الزراعة ، في الصناعة ، في السياحة ، في السياسة ، في الخدمات ، الخ) ، نحن بحاجة الى دراسة جغرافيا علاقة المياه بطرز الحياة Life Style ، بالنشاطات الاجتماعية و الثقافية ، بعادات الشعوب وممارساتها ذات الصلة بالمياه و التي تشكل معتقداتها الخاصة بها وتؤطرها . انها من صلب موضوعات جغرافية ثقافة المجتمع و حضارته Cultural Geography .

فالانسان ومنذ بدء الخليقة وتشكل نوياة الحضارة الانسانية يقطن على ضفاف الانهار ، ولهذا اضحى التنافس حادا على مواقع معينة من الانهر والمسطحات المائية ، و لعل مرجع ذلك بيئتها الخاصة بها ، والى وجود النباتات و تجمع الناس في اوقات معينة عندها (الماء والخضراء و الوجه الحسن) . فقد اصبحت مثل هذه الاماكن مرغوبا فيها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، وتنظم فيها ممارسة نشاطات اجتماعية وثقافية و دينية ، بل ان بعض المجاميع الاجتماعية ارتبطت حياتها المهنية او الدينية (المعتقدات) بالماء وتمارس نشاطاتها موسميا في مواقع معينة (الصابئة على سبيل المثال لا الحصر ، الهنود و المياه المقدسة – البنجاب) . فالشطر الثاني من الحياة (المعنوي – غير البايولوجي) مرهون بالماء بطرق مختلفة ومتباينة زمانيا ومكانيا و حضاريا . لهذا لم يعد الماء اساس الحياة فقط ، بل هو احد اسرارها ، ومفتاح فهمها وادراك طبيعتها .

الهدف من كتابة هذا المقال هو التذكير ، من خلال التلميح ، الى بعض بصمات الماء على حياة الانسان وشعوره بالراحة او المرح ، وتلوين حياته اليومية ، الفردية والاجتماعية . فعندما تتساقط حبات المطر على الارض الترابية تفوح رائحة يعشقها البعض و يعدوها (مسك) الحياة وايذانا بتغيير ، ولو مؤقت ، في البيئة المحلية . كذا الامر عندما تتحول قطرات المطر الى بلورات ثلجية ، ايذانا بموسم ذي طابع خاص بنشاطاته واجوائه . وعندما تتصاعد موجات ماء البحر و تتلاطم متسارعة ، حينها ينشط البعض لاستثمارها في رياضة فيها متعة التحدي والمخاطرة . فسكون ماء البحر له متعته الخاصة للمتأملين في الافق ، و هيجانه له لمساته لبعض القلوب والامزجة .

اما رياضة المشي فتكون ذات طعم خاص ونكهة مميزة في حالتين : تحت قطرات رذاذ المطر (في طرق مبلطة ومنتظمة) ، و في مسارات اعدت لهذا الغرض بجوار المسطحات المائية . وفي كلتا الحالتين ، يقطع الشخص مسافة مضاعفة لروتينه المعهود دون ان يحس بالتعب ، بسبب المتعة الخاصة التي توفرها هذه الاجواء . ورذاذ المطر ، بالذات ، كانه يتولى عملية غسل مزدوجة ، خارجية و داخلية ، تنسي الشخص همومه ومتاعبه و مشاكله . انها نعمة من رب العالمين .

نتيجة التذبذبات المناخية ، وحالات الجفاف ، و غزارة هطول الامطار في بعض الاماكن فقد كشفت المياه في الحالتي ما كان مجهولا . ولعل المستكشفات الحديثة تقول للانسان : مهما وصلت من علم وتقدم تقني فما زلت تجهل الكثير الكثير عن موطنك . فانحسار المياة كشف اثارا لحضارات سادت ثم بادت ، و

تقنيات الغوص في اعماق البحار كشفت حضارات اخرى ما زالت مجهولة . ففي الوقت الذي تتسابق الدول فيه لاكتشاف الفضاء الخارجي والكون واسراره ، تؤكد هذه الاكتشافات اننا فعلا نجهل حقيقة موطننا وتاريخه ، وما حدث له عبر التاريخ . لقد فعلت ذلك المياه ودورتها في الطبيعة . ايقضتنا من سبات عميق .

يشكل هذا المقال دعوة صريحة للجغرافيين لدراسة اسرار الحياة التي فيها بصمات الماء ، وادناه بعض الصور للتحفيز و الاستثارة ، وارحب جدا بتعليقاتكم ، بعيدا عن ما يتعلق بغرق الشوارع و كثرة الاطيان بعد كل زخة مطر في مدننا ، والله المستعان ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

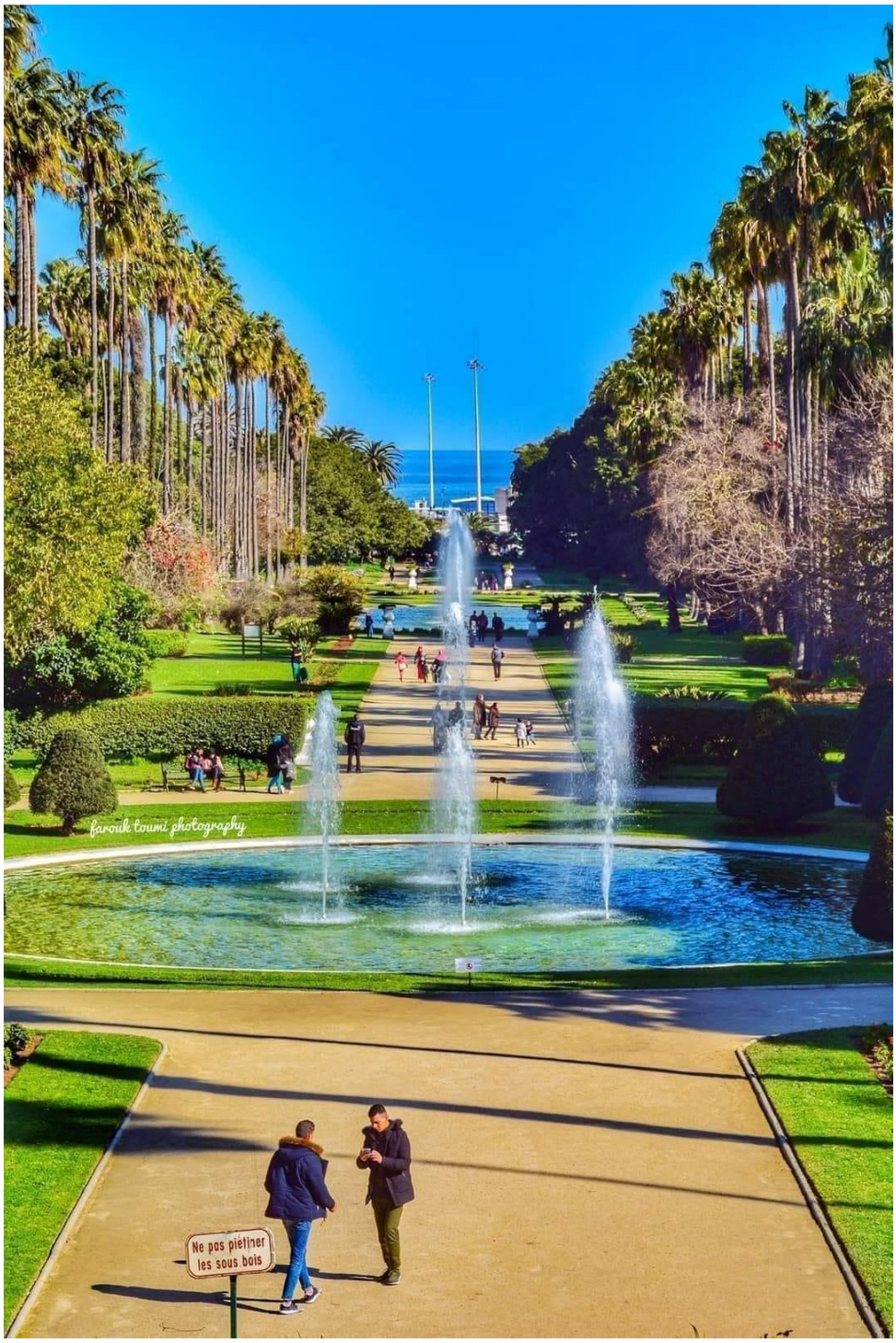
farouk toumi photography
Ne pas piétiner
les sous bois

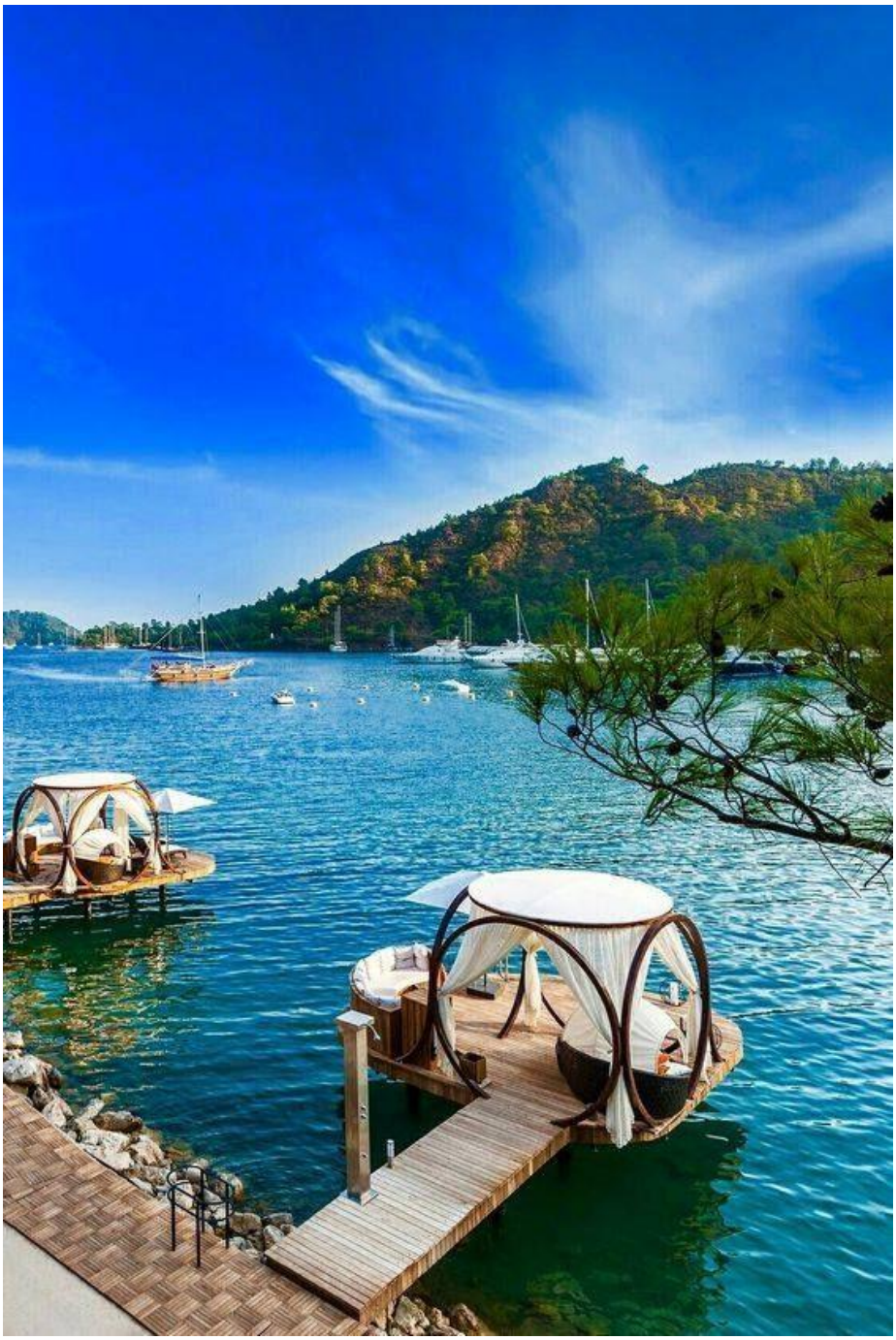

@visit1world